مستقبل المطبوع العراقي الجديد

أحمد خلف

لا يختلف إثنان على أن الكتاب هو الضرورة اللازمة لإعطاء لحياة ووسائلها معنى. لقد شخص عدد كبير من التربويين أهمية وصول الكتاب الفكري والثقافي إلى أيدي شرائح متعددة من البشر، لأنه في المحصلة الأخيرة يسهم في صنع تاريخهم العام من خلال تطوير افقهم المعرفي.. إن شروط وجود الكتاب في البيت أو المكتبة العامة، تحددها إمكانية وسائل صنع الكتاب وتهيئته كسلعة ينظر إليها المشتري بنوع من الاحترام والحاجة. وحين يصل المطبوع إلى أطراف بعيدة من المدن والقرى، تكون صناعته قد حققت قفزة نوعية نادرة، لعلها جزء مهم من الطموح الكبير لخلق سوق للمطبوع العراقي (كتب ومجلات ثقافية وفكرية) الذي نأمل التبضع منه من قبل رواد مختصين يقصدونه شأن الأسواق الأخرى..

وإذا كان لا بد من التذكير بدواعي مقال كهذا، فإننا ندعوكم إلى القاء نظرة عابرة على العجز الريع لمصادر توزيع المطبوع في بلادنا منذ زمن بعيد قد يتجاوز مرحلة التجهيل والقصدية بالإساءة إلى الثقافة عموماً، خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، علماً أننا متفقون جميعاً على ضرورة وصول المطبوع إلى أيدي من يجيد القراءة والكتابة ويعرف قيمة الكتاب ويعطيه اعتباره اللائق.. نريد القول، إذا ما توفر تجهيز الكتاب كسلعة يخضع إلى قانون العرض والطلب، أي بعد توفر شروطه المادية للصناعة اللائقة (بدء أبسط المؤلفة - المحتوى العام للكتاب- حتى عامل الطبعة الذي يتوجب علينا تهيئة ظروف معاشية جديرة به كإنسان ينتج معنا ويساهم بصناعة وتوفير الثقافة والمعرفة) إذا تمكنا من ذلك، يكون لكل الوعود التي قيلت لنا عبر منابر متعددة (رسمية وغير رسمية) والتي ستقال لنا عن الأخذ بمبدأ التقدم خطوات في تصنيع المطبوع العراقي، هذه الوعود سيكون جديراً بنا الإصغاء لها ووضعها نصب أعيننا، والآن، لنكن واضحين تماماً، في ما يخص المستقبل على الأقل، إذ الحاضر بما توحيه الحالة العامة للبلد، قد لا يكون مشجعاً -تماماً- أو باعثاً على التفاؤل بقدر ما تعلق أهمية بالغة بخصوص مستقبل المطبوع عموماً، إذ ينبغي للجميع المساهمة في صنعه وتزجية قيمته للمثلى. نعم، لا بد من خلق كم من المطبوعات وأن يتسم عملنا بالسخاء والأريحية في التعامل، ليس مع المؤلفين الجادين حسب، بل مع الصنع -عمال الطابع والسوقين ومكاتب التوزيع للكتاب والساهمين الآخرين- وصنعه وإيصاله إلى قارئ نريد له أن يفهم معنى المساهمة بخلق مستقبل شعب يعيش مرحلة هي من أصعب مراحلنا التاريخية الحساسة. وسيكون لوزارة الثقافة -حتماً- دورها البرز في دفع دور النشر ومكاتب التوزيع والمساهمة بتحديد أو توسيع شبكة متكاملة من الأقسام والعاملين والموزعين الذين يؤمنون بقيمة ما يؤدونه من واجب وطني وأخلاقي وليس مجرد موظفين يتلقون مرتباتهم سواء، نفذوا الواجب هذا أم لم ينفذوه، ولدينا كثير من الأمثلة الساطعة بهذا الشأن، لعل أبرزها أكداس الروايات والقصص والقصائد والدراسات والمجلات في مخازن الشركة الوطنية أو مخازن العديد من الدوائر الأخرى لكن، هنا لا يصح أن نلقي بائقال الماضي على الوزارة أو مديرياتها دون مساهمتنا بخلق مناخات مشجعة لترويج المطبوع ولكي تقوم -هي- بدورها المنتظر، بشأن المطبوع العراقي (الجديد) الذي ينبغي أن يتسم بأبعاد معرفية متسعة، في التناول أو المجادلة وبعيداً عن الأفكار القسرية أو النظرة الذهبية الضيقة والتي تبدو محصورة دائماً بين قوسين، ولا يعني هذا دعوة لحصر الثقافة العراقية، ضمن لافتة أو بوتقة محددة السمات، بل ينبغي لها أن تنفتح عبر كل السبل والوسائل المتاحة أو تلك التي ننشط في إذكاء جذوتها، إن العناية بصناعة المطبوع العراقي (الجديد) لياقة فكرية خالصة بالجوهر وليست تلخيصاً لفكر مؤلف الكتاب..

وفي الختام، هل حتماً علينا التذكير بتجربة الكاتب العراقي المريرة والمجحفة إذ ظل يحلم بوصول كتابه إلى محافظات القطر وقراه وقصباته خلال السنوات المنصرمة، ولكن دون جدوى، فهل تراه يتجرأ ويترك الحلم ويأخذ مداه في الوصول إلى أحد الأقطار العربية؟!، هل سيظل هذا مجرد حلم يراود جميع العراقيين؟ إذ ما أهمية كتاب ذي قيمة ثمينة، لكنه لا يصل إلى قارئ ينتظره منذ زمن طويل؟؟

الروائي مهدي عيسى الصقر

بمقتل البريكان إكتملت دائرة العبث

يدأ الكتابة والنشر مبكراً، ففي العام (1954) أصدر مجموعته القصصية الأولى (مجرمون طيبون) أتبعها بمجموعة ثانية في العام (1960) بعنوان (غضب المدينة)، غير انه لم يصدر مجموعته الثالثة (حيرة سيدة عجوز) الا بعد مرور ربع قرن على ذلك التاريخ، ليصدر في العام (1988) روايته الأولى (الشاهدة والزنجي)، تحدث فيها عن احتلال أميركي للعراق. ثم توالت كتبه الواحد بعد الآخر ليكرس اسمه واحداً من أبرز كتاب القصة والرواية في العراق.. وكان آخر ما صدر له روايته (الشاطئ الثاني) ومجموعته القصصية (شتاء بلا مطر) وكتابه (وجع الكتابة: مذكرات ويوميات) ذلك هو الروائي والقاص مهدي عيسى الصقر الذي ينتمي الى جيل المجددين في فن القصة العراقية الى جانب عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي.

أجرى الحوار: سعد محمد رحيم

مهدي عيسى الصقر لا يزال يقضي سحابات أيامه في الكتابة، وفي ذهنه الآن عدد من المشاريع الأدبية ولا سيما في مجال الرواية يأمل أن ينجزها والعراق على أعتاب مرحلة جديدة، إلتقيناه، وكان هذا الحوار.

*عندما تكتب هل تتقلقك (التابوات) المحرمات، وإلى أي مدى ينبغي على الروائي أن يخترقها؟

-عندما تفكر كثيراً في المحرمات أثناء الكتابة تكون أشبه بأسير مقيد القدمين يحاول أن يركض، عندما كنت أكتب ما كنت أنسى المحرمات، فأنت لم يكن بوسعك أن تنساها، لأنها كانت تعيش معك، تواجهك في الشارع، وفي ما تسمعه عما جرى للناس الذين لم يراعوها. لكن الكتابة، من جانب آخر، تعني الكلمة الحرة، غير المقيدة، فكيف توفق بين الخوف من العواقب، والرغبة في التعبير الحر، عما يجول في خاطرك. كيف تركض والسلاسل تلتف حول قدميك؟! ثمة مواضيع أدبية هي بطبيعتها خارج حدود المحرمات. على سبيل المثال روايتي (أشواق طائر الليل) و (الشاطئ الثاني) وإن لم تخل تماماً مما يعد تجاوزاً للخطوط الحمراء، إذا خطر للبعض أن يلفت النظر إلى ما ورد فيهما هنا وهناك. اعتدت حين اكتب أن امنح كامل الحرية لشخوصي في أن تتحرك وتتكلم وتفكر كما تمليها الحياة التي تعيشها، بدون أن أكمم لها أفواهها، وأضع عصابة على عينيها، وأقفالاً على عقولها. وكنت حين يكتمل العمل أقرأه بعين الرقيب فإن أجاز هذا الرقيب الذاتي أقدمت على نشره، وإلا احتفظت به في الأدراج. وأعتقد إن هناك عدداً من الروائيين احتفظوا مثلي بأعمال لم يجازفوا بنشرها.

*في "الشاهدة والزنجي" والتي تدور أحداثها في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ثمة ما يشبه النبوءة بقيام المعتدين الأمريكيين بغزونا، الآن وقد وقع هذا الغزو فعلاً، وليس تخيلاً، ألا يخطر ببالك أن تكتب رواية توثق بها هذا الحدث الرهيب؟

-الاحتلال، وما كشفه وجاء به لنا هذا الاحتلال، يستلزم التوثيق من قبل الكاتب العراقي. فبعد الاحتلال وأعراضه الهينة فوجئنا بظواهر مرعبة كانت غريبة على المجتمع العراقي المعروف بالغيرة على العرض وبالشهامة والكرم. كل واحد منا كان يعلم أن ثمة نفوساً أصابها العطب في سنوات الحروب الدائمة والحصار، ولكن لا أظن أحداً منا كان يدرك ضخامة العطب الذي أصاب نفوس شريحة واسعة من مجتمعنا حتى انفلت هذا الشر الكامن من عقاله بسبب الحرب التي اشرعت له الأبواب، وتركته طليقاً يقتل ويغتصب ويحرق ويدمر. إن ما جرى ويجري لا يصدق، ويبعث على الذهول. إن نكبة الاحتلال، وهذا الشر المنفلت لن توثقهما رواية واحدة، ولا كاتب واحد، إنما حشد من الكتاب.

ولكن كما ذكرت في حوار سابق فإن العمل الإبداعي لا يتم مع حرارة اللحظة. إنه يستلزم بعض الوقت حتى تستقطر تراكمات الأحداث اليومية الراسخة في وجدان الكاتب في عمل سيسجله لنا التاريخ عن هذه الرحلة العسيرة التي نكابدها.

*ما الذي يجعلك تنتقل من كتابة القصة القصيرة إلى الرواية وبالعكس؟

-لو بقيت أكتب قصصاً قصيرة فقط لكان عملي الأدبي محدوداً، فأنا بطيء في اختيار المواضيع والأفكار، وما يستفز غيري للكتابة لا يستفزني، فالمواضيع كثيرة تجدها في كل مكان. لكن أكثرها لا ينفعني. أنا أريد لقصصي القصيرة أن تكون مركزة ومؤثرة تدور حول محنة ما، يكابدها إنسان أو أكثر. إنني أتعب في كتابة القصة القصيرة أكثر مما أتعب في كتابة فصل طويل من رواية. الرواية مداها أرحب وشخوصها أكثر، وخيال الكاتب يجد أمامه الأفق مفتوحاً بكل تساعه. يحدث -أحياناً وأنا منشغل بكتابة رواية- أن تلح علي فكرة قصة قصيرة، وتشوش علي، فأضطر إلى أن أعطي نفسي إجازة لكي أتخلص منها بطرحها على رواية وربما كتبت قصصاً قصيرة إذا جاءت وفق شروطي، وإلا بقيت صامتاً حتى يشغلني عمل روائي جديد.

*في القسم الأول من كتابك "وجع الكتابة" وتحت عنوان (دوائر ضوء على تراب درب طويل) ما يشبه السيرة الذاتية المختصرة. ألا يخطر في بالك أن تكتب سيرة ذاتية غير مقيدة بعدد هذه السنوات الطويلة من العمل التي مرت بك خلالها تجارب، وربطتك علاقات صداقة بعدد من الشعراء والكتاب، لا شك أن فيها ما يستحق التسجيل؟

-لا أجد في نفسي الحافز للإقدام على مثل هذا المشروع. ما كتبته في "وجع الكتابة" كان تعريفاً موجزاً أبا الكاتب قبل دخول القارئ إلى القسم الثاني، الذي هو صلب الكتاب. إنني منشغل الآن بكتابة رواية، وتخطر في بالي، في هذه الأثناء فكرة عمل رواية أخرى، ولا أرى أن أضيع الوقت بالكتابة عن نفسي. إن كتابة سيرة حياة تبدو عملاً سهلاً، أول وهلة، لأن الكاتب ينهل من معين يعرفه خير معرفة. ولكنه عمل صعب ومعقد. ولا تأتي الصعوبة من العمل نفسه، بل من الخارج، فنحن كشرقيين، لا نمتلك الجرأة على البوح بما جرى لنا أو قمنا به في حياتنا، كما فعل (جان جاك روسو) مثلاً. ثمة الكثير من الوضع والحرمات. كما إن القارئ عندنا لا يقدر إخلاص الكاتب وصراحته، وإذا كان سطحي التفكير ربما اتخذ من سيرة الحياة مادة للتشهير بالكاتب. أنا لم أقرأ حتى الآن سيرة حياة لكاتب عربي مكتوبة بالصدق الذي نجده في كتابات أدباء مثل بابلو نيرودا أو رفائيل البرتي، وعشرات غيرهما من الكتاب الأوربيين. لذلك فإن ما نكتبه على أنه سيرة حياة يجيء منقوصاً، يتناول شيئاً قليلاً من حياة الكاتب. مع ذلك فإن هذا القليل قد يكون دالاً. ولكنني لست مهتماً بهذا الآن.

*من خلال تجربتك هل ينقل الكاتب عن تجاربه الشخصية حين يكتب، وما هي القنوات التي تصل سيرة المؤلف الذاتية بعمله الأدبي؟

-الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير قال عن بطلة روايته (مدام بوفاري) "السيدة بوفاري هي أنا!". إذ كانت مشاعر البطلة التمردة على رتابة حياتها البليدة في مجتمع ضيق الأفق انعكاساً لشعوره بالضجر ورغبته الخاصة بتغيير حياته. إن أقرب إنسان إلى الكاتب هو شخص الكاتب نفسه. وهو كأديب لا يستطيع منه فكاكاً فهو مثل ظله. ومهما حاول الكاتب أن يكون موضوعياً فإن مشاعره وأفكاره وقناعاته وموقفه من العالم ومن الآخرين، وتأثيرات التجارب التي مرت به في حياته، لا بد أن تتسرب، بشكل من الأشكال، إلى أعماله، بوعي منه أو بدون وعي. إن الكتاب هو الكاتب، بمعنى من المعاني، وحكاية (موت المؤلف) التي طلعوا بها علينا ثم تهافتت هي محض خرافة. فهل تستطيع أن تعزل (الأخوة كارامازوف) عن دوستويفسكي، أو (الحرب والسلام) عن تولستوي، أو ثلاثية نجيب محفوظ عن كاتبها أما القنوات التي تصل سيرة المؤلف الذاتية بعمله الروائي فهي كل أدواته التعبيرية من شخوص وحوارات وتحليل مشاعر وأفكار.

*اعتدت أن تجعل من أصدقائك من الشعراء والكتاب مواضيع لأعمالك الأدبية، فكتبت رواية (أشواق طائر الليل) تحدثت فيها عن معاناة الشاعر السياب بسبب الغربة والمرض وجفاء الوطن، وكتبت كلمة عن القاص محمود عبد الوهاب ظهرت في العدد الخاص بعبد الوهاب من مجلة الأقلام، بعنوان (حكاية عاشق) كما كتبت ما يشبه القصة عن كل من المرحومين الشاعر رشدي العامل والقاص موسى كريدي. وأيضاً كتبت عن القاص عبد الملك نوري قصة بعنوان (رماد الأيام) ظهرت في جريدة "الزمان" وقد بدت (رماد الأيام) كأنها جزء من رواية. فهل تنوي أن تجعلها رواية؟

-عندما شرعت بكتابة (رماد الأيام) كان في نيتي أن أجعلها رواية. ولكن بعد كتابة ثلاثة فصول من هذا العمل أدركت أنني لا أستطيع أن أحقق حلمي في أن أكتب رواية عن عبد الملك نوري، لجهلي بالكثير من جوانب حياته. فأنا جئت من البصرة منقولاً إلى بغداد أواخر عام (1969) وكان عبد الملك قد بدأ ينكمش على نفسه ويجنح إلى العزلة ثم الصمت أخيراً. وعندما خرج من عزلته وصمته، بعد سنوات طويلة، بدأت أزوره في بيته. ولكنه رحل عنا بعد ذلك ببضع سنين لم تكن كافية لأتعرف عليه جيداً. مع السياب كان الأمر مختلفاً إذ كان يعيش في البصرة، وكان عندما يفارقها يظل يتردد عليها، وكنا نلتقي دوماً. رأيت أنني إذا واصلت الكتابة في (رماد الأيام) سوف أضطر للحديث عن وقائع لم تقع، بمعنى آخر سوف أقدم للقارئ صورة ملفقة عن حياة كاتب معروف. وقد ذكرت هذا الإشكال في كتابي (وجع الكتابة). إن التخيل هو من أهم أركان العمل الإبداعي، لكنه لا ينبغي أن يكون منفلتاً، بل أن يبقى على وشيجة بالواقع يستمد مصداقيته منه، كما في روايتي (أشواق طائر الليل). في (أشواق...) ثمة الكثير من الخيال، إلا أن هذا الخيال لا ينأى عن مزاج الشاعر وأحاسيسه وسلوكه المعتاد، أو المتوقع، ونظرته إلى المرأة والوطن والحياة عموماً. لذلك حين تقرأ الرواية تشعر أنك تقرأ عن شاعر عرفته أو سمعت عنه.

*كنت تعرف الشاعر محمود البريكان، فهلا حدثتنا قليلاً عنه وعن علاقته بالسياب؟

-تعرفت على البريكان عن طريق الشاعر بدر السياب. كانا صديقين حميمين. بعد وقت قصير اكتشفت أنهما متناقضان من حيث المزاج والسلوك. كان السياب إنساناً متفتحاً، يتبسط كثير أمع غيره، ويريحه أن يرى الآخرين سعداء بوجوده معهم. السياب لم يكن لديه الكثير من الأسرار التي لا نعرفها نحن أصدقاؤه، في حين كان البريكان كتوماً، قليل الكلام، تجهل الكثير من أسراره. ومع تقدم العمر غدا أكثر انعزالاً، وتوقف عن نشر شعره خوفاً على أفكاره، وصوره الشعرية، من أن تسرق. وراح يطمر قصائده مرة في صندوق للأمانات في أحد المصارف، ومرة في مخبأ مجهول داخل بيته. وقد حاول السياب أن يدفعه إلى الخروج من العزلة التي اختارها، لكنه لم يفلح. ولا أدري إن كان أحد قد اكتشف -بعد مصرعه المأساوي- خزين شعره المخفي أم لا. خسارة كبيرة طبعاً إن لم يعثروا على ما تركه وراءه من شعر لم ينشر. السياب كان على العكس يسارع بنشر قصائده على الناس حال الانتهاء من كتابتها. كان بدر ينظر إلى الدنيا بتفاؤل، غير إن الحياة مضت به في طريق مغاير لما كان يتمنى. طريق مسدود الأفق. الغريب أنه برغم نزعة التفاؤل البادية في سلوكه ظل الموت هاجسه القديم، الذي يطالعنا في الكثير من قصائده، حتى قبل أن يدهمه المرض القاتل ويفقد الرجاء! (أكان تفاؤله قناعاً محضاً يخفي به أوجاعه النفسية والعاطفية عن عيون الناس!؟).

البريكان كان شاعراً عميق الرؤيا تقرب إلى الفيلسوف. في قصيدته "الطارق" ما يشبه النبوءة بمصرعه، فهو يقول في مطلعها:

"على الباب نقر خفيف، على الباب نقر بصوت خفيض، ولكن شديد الوضوح،
يعاود ليلاً أراقبه، أتوقعه ليلة بعد ليلة.."

وكما تنبأ البريكان زاره القاتل ليلاً، نقر على الباب نقراً خفيضاً -كما اعتاد أن يفعل ابن الشاعر- ثم توارى. خرج البريكان ولم يجد أحداً (كما في القصيدة). عندما عاد حائراً وقبل أن يغلق الباب هاجمه القاتل المرتقب، دفعه إلى حجرته وأجهز عليه. وبهذا الموت العبثي فقدنا شاعراً كبيراً. ولعل قاتله غادر السجن، قبل الحرب، مع من غادر من مجرمين وقتلة. وهكذا اكتمل دائرة العبث!

*ما هو العمل الجديد الذي ستطلع به على القارئ، بعد مجموعتك "شتاء بلا مطر" المطبوعة في سوريا؟

العمل الذي من المحتمل أن يصدر لي في دمشق، قبل نهاية هذا العام ربما، رواية متوسطة الحجم بعنوان (امرأة الغائب). وفي هذه الرواية حكايتان متلازمتان: إحداهما خيالية على غرار حكايات (ألف ليلة وليلة) والأخرى واقعية (بمعنى أنها تتكئ على الواقع). في الحكاية الخيالية رجل تختطفه ساحرة مستبدة. في الحكاية الثانية رجل تختطفه الحرب. رجل الخيال يعود بعد غياب طويل ليروي لزوجته وابنته ما كابده من قهر وإذلال على يد الساحرة، أما رجل الواقع فيضيع على جبهات القتال. ن

حين نتعرف عليه على لسان أمه وزوجته التي تظل تنتظره بصبر بدون أن تقطع الأمل في عودته. هذه إشارة سريعة لمرتكزات الرواية. وفيها جوانب أخرى وشخوص وتشابك علاقات، والحكايتان تتداخلان، وتعزز منهما الأخرى حتى نهاية الرواية.

قصائد

خزعل الماجدي

من ضاع ومن ضُيّع

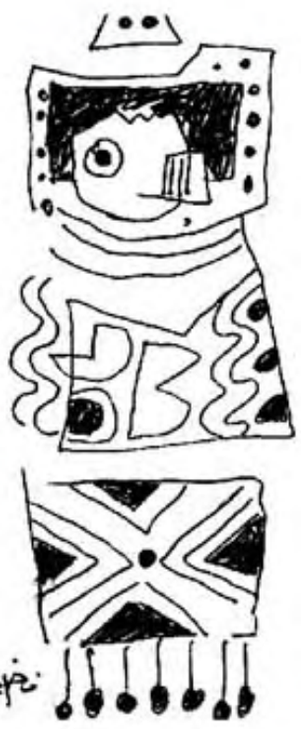

هذه لذة من ضاع
ومن ضُيع
يا أحزان قومي
هذه مركبة تائهة
في الدمع
هذي السنبلة
هزها نفخ شفاه
الشمس يا أوجاع
قومي
هذه قافلة الخمر
تفلي جسدي
إصبع يصعد للعقل
فتنشق له الدنيا
وتغلي
إصبع ينزل في
القاع فيبتل
ويهذي
هذه شهوة من فك
الرياح
وبه تاهت حشود
وتشظت وانطوت
في ترسه تلك
الرماح.

هم يعرفون

هم يعرفون ولست تعرف
من تغني أو تخيط
هم قافلات معتم..
وملغز.. ومغرب في
الوحل
هم ليل الضفاف وطمرها
وهم ارتعاش خرافة في
الضوء
والورد المذبح في السواقي
والبخار
ونهوض معنى من معاني
الموت
هم هذي الجياد وليلها
تعدو وتسحل راكبيها كي
يقوم
أفق برايات ملطخة ونار
ويسد ليل أنفنا وعيوننا
هم يعرفون ولست تعرف
من تكون
هم يعرفون..
ولست تدرك بينهم في أن
تكون ولا تكون
فاحذر وباعد وابتعد..
واعل
وته طربا بأنك في
الجنون.